الفصل الحادي والثلاثون

وفي الوقت نفسه كانت المدينة من قبل قد تأثرت كثيراً بالحصار الطويل وبالسيف،وبالمجاعة،وبالوباء،وكانت الأحوال أشد مما يمكن وصفه وكتابته،ووضعت أملها فقط في السلام الذي كان السلطان قد وعد به السكان،لأن المجاعة ازدادت فيها الى درجة عالية،وانعدمت فيها الأطعمة المحتاجه،مع أن الأطعمة الفاسدة كانت فيها كثيرة ووفيرة، لأن القمح في مصر لايعمر طويلاً،بسبب نعومة الأرض التي ينمو فيها، فيما عدا الأراضي حول القاهرة،حيث كان يحفظ هناك ببراعة لسنوات، وحسبما سمعنا أن تينة واحدة بيعت في دمياط مقابل إحدى عشرة قطعة نقدية،وبسبب ضغط المجاعة هددت أنواع متعددة من الأمراض السكان، وبين الأمراض والمصائب التي عانوا منها—حسبما قيل—أنهم لم يعودوا يبصرون شيئاً أثناء الليل،وكأنهم أصيبوا بالعمى،مع أن أعينهم كانت مفتوحة،وحثهم السلطان على عدم الاستسلام،وخدع هؤلاء الناس التعساء من يوم الى آخر بوعود فارغة،وأغلقوا— على كل حال— أبوابهم من الداخل من أجل أن لايأتي أحد إلينا من بين صفوفهم،فيخبرنا كيف أنزلت بهم الأيام المصاعب والى أي حد كانوا يعانون منها،لكن من الواضح أن الذين كان بامكانهم النجاة بوساطة الأبواب الجانبية،أو من خلال التدلي من الأسوار بوساطة الحبال،بينوا بكل وضوح الأحوال المأساوية لقومهم عن طريق أوضاع أجسادهم المتورمة ومظاهر الجوع عليها،وبدأت موارد الخبز والأطعمة بالتلاشي حتى بين الذين كانوا يحاصروننا من الخارج في جيش المسلمين،لأن النيل، يفيض بالعادة من بعد عيد القديس يوحنا المعمدان(٢٤حزيران) حتى عيد تمجيد الصليب المقدس(١٤—ايلول)ولكن لم يصل ارتفاع النيل الآن الى المقاس الذي يضعه المصريون بالعادة،وبالتالي لم يتم ري سهول مصر هذه السنة

حسب المعتاد،ولهذا السبب بقيت أجزاء كبيرة من البلاد جافة ،وبذلك لم يكن بالامكان فلاحتها أو حصدها في الأوقات المناسبة،ولهذا فإن السلطان الذي خشي من القحط والمجاعة عرض على الصليبيين صلحاً بوساطة أخيه المعظم عيسى، ذلك أنه فعل ذلك رغبة منه بالابقاء على دمياط، وكانت الشروط التي عرضها:أنه سوف يعيد الصليب المقدس،الذي جرى الاستيلاء عليه من قبل أثناء انتصار صلاح الدين،وذلك مع المدينة المقدسة وجميع الأسرى الذين يمكن ايجادهم على قيد الحياة في أرجاء مملكته في مصر والشام،وأيضاً تقديم المال للقيام بترميم أسوار القدس،وبالاضافة الى هذا كان على استعداد لإعادة مملكة القدس بأجمعها، باستثناء الكرك والشوبك،ولسوف يدفع مقابل تملكها جزية طوال قيام الهدنة.

وكان هناك موضعين قائمين في العربية،احتويا على سبعة حصون قوية جداً،من خلالهم يعبر بالعادة تجار المسلمين والحجاج الذاهبين الى مكة أو العائدين منها،والذي يتملك هذه المواضع يمكنه بكل جدية تسبيب الأذى للقدس مع حقولها وكرومها، وأن يفعل بها كما يريد ويرغب،واعتقد الملك مع الفرنسيين وكونت أوف تشستر مع قادة الألمان،بحزم أن هذه الترتيبات كانت لصالح الصليبيين،وينبغي أن لانعجب تجاه هذا،ذلك أنهم كانوا سيرضون بالصلح الذي كان أدنى أهمية وفائدة وهو الذي عرض من قبل،لولا أنهم عورضوا بالآراء الحكيمة،وبفعالية وحزم عارض النائب البابوي مع البطريرك ورؤساء الأساقفة والأساقفة ،والداوية، والاسبتارية،وجميع القادة الايطاليين(٨٤)،وعدد كبير آخر من حكماء الرجال، عارضوا هذه الترتيبات،وأظهروا بشكل منطقي أن دمياط ينبغي الاستيلاء عليها قبل كل شيء،وأنتج الخلاف بالرأي انشقاقاً مالبث أن وضع حد له،وتمت تسويته بسبب الحاجة العامة،وأرسل في الوقت نفسه السلطان بشكل

سري حشداً كبيراً من الجنود الرجّالة من خلال الأماكن السبخة الى المدينة ليلة الأحد بعد عيد جميع القديسين(٢—٣ تشرين الثاني) وهاجم مائتان وأربعون منهم الأسيجة بينما كان الصليبيون نياماً،لكن صراخ الخفراء أيقظهم،وقتل— حسبما أحصينا نحن— منهم حوالي المائتين أو أكثر أو وقعوا بالأسر.

الفصل الثاني والثلاثون

في الخامس من تشرين الثاني،وفي ظل حكم مخلص العالم،ومع بيلاغوس،أسقف ألبانو،وهو ينفذ بحماسة ويقظة عمله كنائب للكرسي الرسولي،جرى الاستيلاء على دمياط،بدون مقاومة،ودون أن تسلب بعنف،وبدون فوضى وضجة،وهكذا ينبغي أن يعزى النصر الى ابن الرب وحده،الذي ألهم شعبه ودلهم على مدخل مصر وتولى رعاية عونه هناك، وعندما جرى الاستيلاء على المدينة أمام أعين ملك مصر،لم يتجرأ حسبما كانت عادته على الهجوم من خلال دفاعاتنا على جنود المسيح الذين كانوا مستعدين للهجوم، وفاض النهر بالوقت نفسه وملأ خندقنا بماء وفير،وقام السلطان نفسه وهو في حالة من الفوضى والاضطراب باحراق معسكره والفرار،والرب الذي جمع المياه كلها في اليوم الثالث تحت قبة السماء في مكان واحد،هو نفسه الذي جلب جنوده بوساطة مياه البحر الى ميناء دمياط في اليوم الثالث من شهر شباط،وهونفسه الذي استولى على دمياط،القائمة وسط المياه في اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني.

ويمكننا تشبيه هذه المدينة،التي قهرت بالهزة الثالثة للأرض،بثور محطم،ولقد دعوناها«ثوراً» بسبب ترفها وعنفوانها،ومن أجل أسماكها وطيورها،ومراعيها،وقمحها،وحدائقها وبساتينها،فلقد ازدادت ثروة بالتجارة وبممارسة القرصنة،ولقد فاضت بجرائمها وابتهجت،نعم لقد

فاضت في جهنم، «لأنه في ساعة واحدة جاءت دينونتك»(رؤيا يوحنا:١٨/ ١٠) ونحن نقول جاء« خرابها» لأن سكانها هلكوا في الهزة الثالثة للأرض،ومع ذلك بقيت هي دونما أذى بنفسها،فلقد حوصرت أولاً من قبل الاغريق واللاتين الذين غادروها وابتعدوا عنها،ثم حوصرت ثانية من قبل اللاتين تحت قيادة غموري،ملك القدس،الذي لم يحقق النجاح،لكن في المرة الثالثة:«ملك الملوك ورب الأرباب»(الرؤيا:١٩/ ١٦)أعطاها الى عبيده،وكان يسوع المسيح هو الذي انتصر،وحكم وأمر،«وهو الذي بالنسبة للمصريين أيبس كل شيء زرع بالماء... وأخزاهم في كل ماعملوه بالكتان والذهب،والكتان الممشط لحياكة الملابس الرفيعة»(اشعيا:١٩/ ٧—٩)، وهكذا قاتل جند المسيح دمياط،فوجدوا شوارعها مغطاة بجثث الموتى،الذين هلكوا بسبب الأوبئة والمجاعة،ووجدوا كثيراً جداً من الذهب والفضة،وكانت الأقمشة الحريرية العائدة للتجار بكميات وفيرة،وكان هناك عدداً كبيراً من مخازن البضائع المليئة بمختلف الأنواع،وبالاضافة الى الموقع الطبيعي للمكان،والذي كانت محصنة به،كانت المدينة محاطة بسور ثلاثي ومحمية بقوة بوساطة عدد كبير من الأبراج الآجرية،وهي المفتاح لمصر كلها، وهي محمية بشكل جيد لوقوعها فيما بين رعمسيس وسهل تنيس في أرض جيسين(٨٥)Gessenوذلك حسبما تمكنا من استخلاصه،لأن هناك تقوم المراعي التي طلبها بنو اسرائيل من الفرعون في أيام المجاعة(انظر التكوين:٤٧).

الفصل الثالث والثلاثون

دمياط،مشهورة بين المماليك،وهي مشهورة جداً في مجد مصر،فهي الحاكمة للبحر،والناهبة للصليبيين،لقد جرى الاستيلاء عليك،لفخار مضطهديك، بوساطة عدد قليل من السلالم الصغيرة،وأنت

الآن«متواضعة تحت يد الرب القوية»(بطرس:١/ ٥/ ٦)،ورميت بعيداً الزاني الذي احتفظت به لوقت طويل،ولقد عدت الى زوجك السالف،وأنت التي ولدت أولاد زنا أولاً سوف تلدين الآن أولاداً لصالح الايمان بابن الرب،لأنك غدوت في القبضة القوية للمؤمنين بالمسيح،وحرر أسقف عكا(جاك دي فيتري)فيك الثمرات الأولى من الأرواح من أجل الرب،بقيامه بتطهير صغارك في ماء المعمودية الطاهر،وهم الذين عثر عليهم فيك أحياء بقوته،مع أنهم كانوا أقرب الى الموت، ولقد كنت عرضة لأضعاف مضاعفة من العقوبات،لأنه الى جانب الذين أخذوا أحياء فيك،بلغ تعداد موتاك من كلا الجنسين من بداية الحصار حوالي الثلاثين ألفاً وأكثر،فالرب هو الذي رماهم وأماتهم بدون سيف ولانار،وأصبحت منذ الآن فصاعداً تسخرين من تحمل الدنس الذي اقترف فيك.

الفصل الرابع والثلاثون

وبناءً عليه لتبتهج الكنيسة بعودة الأعمال الجديدة بالشكر من أجل مثل هذا النصر، وليس ذلك فقط من أجل دمياط، وإنما أيضاً من أجل تدمير قلعة جبل الطور الخطرة، ولنيلنا ممراً حراً إلى القدس، التي من الممكن إعادة بناء أسوارها في الوقت الذي يراه الرب العالي، وإلى جانب هذا قلعة ابن الرب، التي يتولى جيش الداوية في ظل نفقة عظيمة جعلها مفيدة ولاترام، وهي التي كتبنا من قبل حولها كثيراً، ابتهجي يامقاطعة كولون، وافرحي وقدمي الشكر، لأنك أعطيت من السفن، ومن آلات الحرب، ومن المحاربين ومن الأسلحة، ومن الميرة والأموال، والمعونات، أكثر مما أعطته بقية مملكة ألمانيا، هذا وشعبنا شعب الرب، متشوق كثيراً وبانتظار امبراطورنا اللامع مع ملك صقلية حتى يحققا بسرور الالتحاق بالمخاطرة، أما أنت ياكولون يا مدينة القديسين، الذين يقيمون في

حدائق ورود الشهداء، وليلك العزراوات، وبنفسج المعترفين، ابتهجي الآن بالسلام الزمني الذي تمّ نيله بوساطة رئيس أساقفتنا المبجل، وبسبب إيمان واخلاص بناتك، واركعي بقلبك أمام الرب في الأعالي، الذي لديه قوة الحياة والموت: «ولا تستكبري في ذهنك بل خافي أمامه، وزكي طريقك أمامه خشية أن عظيم غضب الرب الذي انسكب عليك». (روما: ٢/ ٢٠. أيوب: ١٣/ ١٥. أخبار الأيام: ٢/ ٣٤/ ٢١) أن يتحول إلى بردلكن..... بما أن أوقات السلام قد منحت منذ وقت طويل، تعبدي بعقل متفتح الذي له الشرف والمجد، والجبروت والقوة.

الفصل الخامس والثلاثون

قبل الاستيلاء على دمياط استرعى انتباهنا كتاب كتب بالعربية، قال فيه مصنفة أنه لم يكن لايهودياً ولامسيحياً ولامسلما، ومهما كان هو، لقد تنبأ بالشرور التي أنزلها صلاح الدين بوحشية على الشعب الصليبي، في تدميره لطبرية، وفي نصره على الصليبيين عندما أخذ ملك القدس أسيراً ومعه أمرائه، واحتل المدينة المقدسة، وهدم عسقلان، وتنبأ أيضاً كيف أنه حاول الاستيلاء على صور غير أنه لم ينجح، وأشياء أخرى كثيرة استحقتها ذنوب ذلك الحين، وتنبأ أيضاً بدمار حدائق وبساتين نخيل مدينة دمياط، الأمر الذي رأيناه يتحقق، عندما تفحصنا هذا الكتاب من خلال المترجم، ولقد أضاف بأن دمياط سوف يتم الاستيلاء عليها من قبل الصليبيين، وهو لم يستخدم اسم صلاح الدين، لكنه أشار إليه من خلال عينيه السوداوتين ورايات الصفراء، يضاف إلى هذا لقد تنبأ بواحد من الملوك من مسيحيي النوبة (برسترجون الذي سيأتي ذكره فيما بعد بالتفصيل) سوف يتولى هدم مدينة مكة، ولسوف يفرق عظام النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) مع أشياء أخرى لم تحدث بعد، لكنها ستكون، وعندما ستتحقق سوف يؤدي ذلك إلى بهجة المسيحية وذل المسلمين،

ونحن نعرف أن بعض الكفار من الشعوب يمتلكون روح قدس على شفاههم، لكن ليس في قلوبهم، ولقد تنبأوا بشكل مكشوف حول المسيح، ولهذا نحن لسنا مندهشين إذا ماتدفق الماء من خلال الأقنية الحجرية.

إلى جانب هذا انتشرت تقارير في جميع أنحاء العالم تحدثت عن الاستيلاء على دمياط من قبل الصليبيين، وكان هذا هو السبب في ارسال رسالة من الجورجيين (الكرج) إلى معسكر الجاثليق، وقالت الرسالة بأن تلك الأمة غاضبة وتشعر بالعار وثائرة لذلك، وقررت وأقسمت الأيمان أنه ماأن يتمكن الملك من اقناع القادة، حتى سيتولون حصار احدى مدن المسلمين الشهيرة، وأعلنوا أنهم يشعرون بالعار لأن الفرنجة جاءوا من مناطق نائية عبر البحر، ومن أقصى حدود الأرض، عبر محيط مليء بالمخاطر، وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة حصينة جداً بعد طول حصار، ولسوف يظلون يشعرون بالعار ومالم يقوموا هم أنفسهم بالاستيلاء على دمشق أو مكان محدد آخر بقوة أسلحتهم، ذلك أنه أسهل عليهم من الفرنجة مهاجمة العدو وقتاله، ويؤمن الجورجيون الآن بالمسيح، وهم جيران للفرس، تفصلهم عن أرض الميعاد امتدادات واسعة من الأرض، وتمتد مملكتهم حتى جبال قزوين، التي محبوس فيها عشر قبائل، تنتظر موعد ظهور المسيح الدجال، فوقتها سوف يتدفقون نحو الأمام ويسببون الكثير من الخراب، والجورجيون شعب محارب، ويضع رجال الدين منهم على رؤوسهم قلنسوات مستديرة، أما قلنسوات غير رجال الذين فمربعة، ونساؤهم من ذوي الأصل الرفيع قد تدربن على القتال، وعندما يمضي الجورجيون إلى قتال الأعداء في صفوف منتظمة يشرب كل واحد منهم قرعة صغيرة مملوءة بالخمرة الصرفة، ووقتها يقاتلون خصومهم بشجاعة.

ولاريب لدينا أننا بين المحظين من قبل المسيح حامينا، فقد دافع عن قادتنا وحماهم من القتلة من بين صفوف أعدائنا أثناء حصار دمياط، لأن

الحشيشية ومقدمهم «شيخ الجبل» اعتادوا على رمي خناجرهم ضد الصليبيين، لوضع حد لحياة الذين يهتمون منهم بمصالح المسيحيين وأعمالهم، فقد حدث في أيام الهدنة أنهم قتلوا بشكل متعمد (ريموند بن بوهيموند الرابع) كونت طرابلس، الذي كان شاباً جيداً، حيث مدد أمام المذبح في كنيسة العذراء المباركة في طرطوس، وبناءً عليه قام جيش الداوية بمطاردتهم بدون توقف وبعنف ديني كبير، حتى تذللوا إلى حد العبودية ووعدوا بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثة آلاف دينار إلى الداوية.

الفصل السادس والثلاثون

في أيام الحصار، توفي ليون ملك أرمينيا في سن متقدم، ومثله توفي سلطان قونية،ومن المعتقد أنه كان قد تعمد، وكان لذلك لطيفاً جداً نحو المسيحيين، حتى أنه في أثناء مشاركته في الحروب ضدبعض المسلمين كان يأمر باطلاق سراح المسيحيين الذين كان يجدهم في الأغلال داخل الحصون التي كان يتولى مهاجمتها، وكان يعطيهم حق الخيار بالعودة إلى بلدانهم، وذلك إذا مارغبوا، أو بتسلم المال منه، ومن ثم المشاركة في الحروب تحت قيادته إذا مافضلوا ذلك، وكانت علاقاته وطيدة بالمسيحيين إلى حد أنه اتخذ منهم حرسه الشخصي، مع أن والده كان قد قتل من قبل لاسكارس الاغريقي، كما أنه ساند الأفضل علي الابن المخلوع لصلاح الدين ضد أبناء سيف الدين، وذلك بقدر ماسمح خليفة بغداد الذي كان بمثابة البابا لقومه.

وألحق الملك الأشرف بن سيف الدين خسائر كثيرة بالداوية عندما كانوا يحاصرون دمياط، فهو قد أحرق بلدة صافيتا، ودمر أبراجها المحصنة، لكنه عندما عاد إلى أراضيه هزم من قبل المسلمين، وفي الوقت نفسه، هاجم بوهيموند كونت طرابلس بشدة وعنف مدينة انطاكية،

وطرد منها روبين، الذي كان واحداً من أقربائه، وخلعه من حكم المدينة (٨٦)، وفضل بالحري التمتع بالذنب الدنيوي على التعاون مع الشعب المسيحي، ولهذا قام نائب الكرسي الرسولي رسمياً باعلان الحكم عليه بالحرمان الكنسي، وبتطبيق ذلك ضده وضد طرابلس والأراضي التي اقترف فيها جريمته.

الفصل السابع والثلاثون

«قد كسر الرب عصا الأشرار قضيب المتسلطين. فعله المرهب نحو بني آدم» (اشعيا: ١٤/ ٥. المزامير: ٧٤ / ١٧؛ ٦٥/ ٥) فهو الذي فتح بقوته أبواب دمياط، عندما كنا داخلين إليها، وهناك واجهتنا رائحة رهيبة، ومنظر تعيس، فقد قتل الأموات الأحياء، لقد قتل الرجل زوجته، والأب ابنه، والسيد عبده لقد قتل كل واحد منهم الآخر برائحته، ولم تكن الشوارع وحدها مليئة بالموتى، لكن البيوت أيضاً، ففي غرف النوم، وعلى الفرش تمددت جثث الموتى، وعندما كان الزوج يهلك، كانت المرأة لاتمتلك القدرة على القيام وتفتقر إلى من يقدم لها العون، لذلك كانت تموت لعدم قدرتها على تحمل الرائحة، وكان الولد إلى جانب أبيه، أو العكس صحيح، هلك بالمرض، وتمدد جثة هامدة: «الأطفال يسألون خبزاً وليس من يكسره لهم» (مراثي أرميا: ٤/ ٤) وكان الرضع معلقون على صدور أمهاتهم وأفواههم مفتوحة وهي تحتضن واحداً من الأموات، ومات الرجال الأثرياء ذوي الحساسية العظيمة من الجوع وسط أكوام من الطحين، وكانت هذه الأطعمة تفتقر إلى ماعتادوا عليه، وبصعوبة بالغة اشتهوا البطيخ والتوم، والبصل، والسمك، والطيور، وفواكه الأشجار والتوابل، وفيهم تحققت نبوءه النبي بقوله: «فيكون عوض الطيب عفونة، كجثة مدوسة متعفنة لاتتحد بهم في القبر» (اشعيا: ٣/ ٢٤؛ ١٤/ ١٩ — ٢٠)، ولقد هلك في المدينة قرابة الثمانين ألفاً،

وذلك حسبما عرفنا من تقارير الأسرى، وكان ذلك من بداية الحصار حتى نهايته، وذلك باستثناء الذين وجدناهم أصحاء أو مرضى، وكان تعدادهم حوالي الثلاثة آلاف، وثلاثمائة من هؤلاء كانوا هم الأكثر تميزاً بين كلا الجنسين، وقد جرى الاحتفاظ بهم من أجل فداء أسرانا، وقد مات بعضهم بعد النصر وجرى بيع آخرين بأسعار مرتفعة، وقسم آخر جرى تعميده واعطائه للمسيح.

الفصل الثامن والثلاثون

وكانت هذه المدينة محصنة إلى درجة عالية، حيث امتلكت سوراً أولياً لحماية الخندق، ثم سوراً ثانياً أعلى، ثم سوراً ثالثاً أعلى من الثاني، وامتلك السور الثاني ثمانية وعشرين برجاً رئيسياً واحتوى كل برج منها من ساترتين إلى ثلاثه سواتر للرماة، وقد بقيت جميعها صحيحة بدون أذى مع الأسوار، فيما عدا واحدة انشطرت بشكل واضح بسبب الرمايات المستمرة التي صدرت عن منجنيق دوق النمسا، ذلك أن جيشنا استسلم للكسل والتراخي حتى أن الفرسان كرسوا أنفسهم للمتعة مهملين عمل الرب، بينما انصرف عامة الناس إلى الحانات، وإلى التعامل بالخداع والحيل، وتمت صناعة سنورين أنفق عليهما مبالغ كبيرة من أجل طم الخندق، وأوكل أمر إحداهن إلى الملك، ووضعت الثانية تحت رعاية الرومان، وقد أحرقتا، عندما كان المدافعون عن المدينة مايزالون أقوياء وقادرين على استخدام السلاح، وجرى حفر نفقين تحت الأرض من أجل لغم أساسات التحصينات، لكن ذلك العمل أعيق بعدما كلف كثيراً، فقد رغب الرب في إعطاء المدينة بلا أذى، وبدون خسارة الذين يستولون عليها، وكان هذا بسبب قوته، وأقسمنا نحن بشكل جماعي على أن الأسلاب التي ستحمل من المدينة ينبغي أن تقسم بين المنتصرين، وأضيف إلى هذا تحريم مهيب من قبل نائب الكرسي

الرسولي، والمعتدون سوف يظلون ينظر إليهم بازدراء دائم مع عخان الذي أخذ عند أريحا شيئاً مما كان محرماً، وفي الحقيقة جعل شره العين كثيراً من الرجال لصوصاً، ومع هذا تلقينا لصالح الدولة وتسلمنا جزءاً كبيراً من منتجات مصر الثمينة من ذهب وفضة ولآلىء، وتفاح العنبر، وخيوط ذهبية، ومختلفة أنواع الشراريب وأقمشة حريرية ثمينة، مثلما عدّد أشعيا وأحصى بقوله: «ينزع السيد في ذلك اليوم زينة الخلاخيل والضفائر والأهلة. والحلق والأساور والبراقع، والعصائب والسلاسل والمناطق وحناجر الشمامات والأحراز. والخواتم وخزائم الأنف. والثياب المزخرفة والعطف والأردية والأكياس. والمرائي والقمصان والعمائم والأزر» (أشعيا: ٣/ ١٨ — ٢٣)، والأشياء التي أخذت لايمكن لإنسان أن يحصيها كاملة، ونحن نبدد وقتاً طويلاً في تقديرها، ووزعت هذه الأشياء وسط جيش الرب مع القمح الذي وجد في المدينة.

الفصل التاسع والثلاثون

ألحق نائب الكرسي الرسولي دمياط، مع كل ماهو متعلق بها بمملكة القدس إلى الأبد، وجرى تحويل مسجد دمياط من خلال تضرع الثالوث المقدس الذي لايعرف الانقسام، إلى كنيسة كرست على اسم العذراء مريم المباركة والرائعة، وبما أنه بني على شكل رباعي، كان بإمكاننا أن نرى أن عمقه يساوي تقريباً طوله، وهو محمول على مائة وواحد وأربعين عموداً رخامياً، وقد امتلك سبعة أروقة، وهناك في الوسط ساحة طويلة وعريضة مكشوفة، فيها هرم له في أعلاه شكل قبة مفتوحة، وفي الطرف الغربي هناك برج قائم على شكل الأبراج التي تحمل النواقيس، وقد بني فيه أربعة مذابح، وحمل المذبح الأول اسم مريم المباركة، وحمل الثاني اسم بطرس أمير الحواريين، وحمل الثالث اسم الصليب المقدس، وحمل الرابع اسم بارثلميو المبارك، الذي جرى يوم عيده الاستيلاء على البرج

القائم وسط النهر.

ووجدنا في دمياط أربعة مجانيق مع عرادات وعدد كبير من المجانيق العادية، وآلات قاذفة قوية جداً مع مخرطة، وبسبب تعداد الحشد الكبير لم نعرف عدد العرادات والأقواس، فقد كان هناك كل نوع من أنواع المعدات للرجال الشجعان، قد وجد محفوظاً من أجل الصليبيين، ولم يقسم الذهب والفضة والمجوهرات والأشياء السهلة النقل على شكل حصص فقط بين رجال الدين والفرسان، بل بين الخدم، والنساء والأطفال، وجرى توزيع أبراج المدينة مع بيوتها بين الممالك التي احتشد مقاتلوها من أجل الاستيلاء عليها، واحتفظ في المقام الأول بأحد الأبراج، بحكم الواجب واللياقة، لصالح الكنيسة الرومانية مع بابه الذي كان يدعى من قبل باب القاهرة، غير أنه بات يعرف الآن باسم باب الرومان، واحتفظ ببرج آخر لصالح رئيس أساقفة دمياط، ومثلما حدث من قبل حيث جرى الاستيلاء على القدس، المدينة المقدسة للرب الحي، من قبل الأعداء في الليل، هكذا أيضاً استولى الصليبيون على دمياط قبل الفجر، أما بالنسبة للآلة التي تمّ بوساطتها الاستيلاء على برج النهر فقد كرسها الألمان والفريزيون لصالح الجميع، ومنها تمت إقامة جسر جديد بين المدينة والحصن الذي بني كدفاع على ضفة النهر المواجهة للمدينة، وجرى وضع حصنين صغيرين مع بعضهما لحماية البرج، بوساطة الآلة نفسها، وإلى جانب هذا أقيم من الأشجار الأخرى التي علقت عليها السلالم، مكان مراقبة على ذروة حصن جديد، من أجل تبيان مكان الميناء للذين كانوا يأتون مبحرين من مسافة بعيدة، وكان هناك جسر قديم، أمكنه بوساطة جزيرة قائمة في الوسط، من ملامسة كلا الضفتين، وقد هوجم مرات عدة من قبل المسلمين أيام الحصار، وتمت المدافعة عنه برجولة من قبل الصليبيين، أما الآن وقد قام بما توجب عليه، فقد احتفظ به لاستخدامات أخرى.

الفصل الأربعون

بمعجزة لم تكن أبداً أدنى، بل بالحري أعظم من سواها، أعطى الرب إلى الصليبيين حصن تنيس، في شهر تشرين الثاني، في يوم عيد كليمنت المبارك، (٢٣ — تشرين الثاني)، وكان هذا الحصن قائماً على البحر، فقد جرى إرسال كشافة كان عددهم قرابة الألف بوساطة سفن صغيرة، خلال نهر صغير يدعى نهر تنيس، وذلك بقصد أن يجلبوا ميرة لأنفسهم من القلعة، وليقوموا بكل عناية بتفحص الموقع المشار إليه، ورأى المسلمون الذين كانوا في حامية الحصن، الصليبيين فخيل إليهم أن الجيش كله قد جاء، لذلك فروا بعدما أغلقوا الأبواب، أما رجالنا الذين كان المسيح هو قائدهم الوحيد هناك، فقد شقوا طريقهم بين الحواجز، ودخلوا إلى الحصن، وبعد عودتهم أعلنوا لنا أنهم لم يشهدوا قط حصناً قام على سهل أقوى منه، فقد امتلك سبعة أبراج قوية جداً، محصنةً بشرافات وطلاقات، يضاف إلى هذا أنه كان محاطاً بخندق مضاعف، كل قسم منه كان محمياً بوساطة سور، وكان هناك بحيرة تمتد بشكل عريض حول تلك المنطقة إلى حد تجعل من غير الممكن بالنسبة لخيّالتنا الوصول في الشتاء، وصعب جداً في الصيف، أي أنه كان من المستحيل بالنسبة لجيشنا الاستيلاء على هذا الحصن بوساطة الحصار، وحوت البحيرة وفرة من الأسماك، وكان يدفع من صائدي سمكها كل سنة أربعة آلاف مارك فضي إلى السلطان في القاهرة، وذلك حسبما جرى إخبارنا من قبل الشيوخ، يضاف إلى هذا، كانت هناك وفرة وفيرة من الطيور، وأعمال لاستخراج الملح، وعدد من القرى المحصنة منتشرة هناك تابعة لهذا الحص، وكانت المدينة خلف الحصن، أكبر من دمياط، وكانت من قبل مشهورة، لكنها الآن مخربة، في ثناياها شهادة على حجم أبنيتها، فهذه هي تنيس التي ذكر النبي حقلها بقوله:« قدام أبائهم صنع

أعجوبة» [المزامير: ٧٨/ ١٢] وقول اشعيا: « إن رؤساء تنيس حكماء مشيرى فرعون» [اشعيا: ١٩/ ١١/]، فهذه هي تنيس التي قيل بأن إرميا قد رمي بالحجارة فيها، لأنه عندما دمرت القدس من قبل البابليين [ارميا: ٥٢] وجرى قتل جدليا من قبل اسماعيل [ارميا: ٤١] ذهبت بقية الناس إلى مصر في معارضة لرأي إرميا، وأخذوا معهم إرميا الذي مكث في تنيس معهم: « وصارت كلمة الرب إلى إرميا في تنيس قائلة: خذ بيدك حجارة واطمرها في الملاط في الملبن الذي عند باب بيت فرعون» الخ.[إرميا: ٤٣/ ٨—٩] وقال إرميا بعد هذا لهم: « قال الرب: ها أنذا قد حلفت باسمي العظيم... فيفنى كل رجال يهوذا الذين في أرض مصر بالسيف والجوع حتى يتلاشوا»[إرميا: ٤٤/ ٢٦ — ٢٧]، وثار الشعب ضد إرميا، ورموه بالحجارة التي كانت مخبأة تحت الجدار الآجري، لكن المصريين شرفوا النبي ودفنوه خلف قبور ملوكهم، ذلك أنهم كانوا مقدرين للمنافع التي أظهرها لمصر، لأنه بكلماته أبعد حيوانات الماء التي يطلق عليها الاغريق اسم التماسيح، ثم كان أن جاء الاسكندر المقدوني إلى قبر هذا النبي، وتعرف عليه من خلال الطبيعية الخاصة

للمكان،والأسرار المحيطة به،ونقله الى الاسكندرية،ودفنه هناك وسط تمجيد عظيم،هذا ولقد وجدنا تماسيح في دمياط وقتلناها،وهذا الحيوان متوحش يفترس الناس والحيوانات،ويعتني ببيضه ببساطة بمراقبتهم بأعين مفتوحة،وما أن يفقس صغيرها حتى يفر من أبويه وكأنهم عدوين،ذلك أنه يلتهم على الفور ويفترس أي شيء يمكنه امساكه.

وتنفصل تنيس عن دمياط بمقدار رحلة يوم واحد عبر البحر باتجاه أرض المعياد،لذلك من السهل وضع حامية عسكرية هناك أو إرسال طعام إليها من عكا أو من دمياط عبر البحر،أو عبر البر أو بوساطة النهر،وقد سببت الحاق خسائر عظيمة بالصليبيين أثناء حصار دمياط،عندما كانت السفن تأتي إلينا،أو تبتعد عنا محملة بقوة

الرياح،لأن الشاطىء أمام تنيس منحني وبدون ميناء،عاملاً بذلك خليجاً كاملاً واسعاً،وعندما كانت السفن تقذف إليه كان لايمكنها الانسحاب من دون هبوب رياح موافقة جداً لهم.

الفصل الحادي والاربعون

وعاد المعظم عيسى من مصر الى فلسطين،فتولى حصار قيسارية، التي كانت تحت وصاية الملك،واستولى عليها في وقت قصير ودمرها،بينما عمل المدافعون عنها بإهمال،ومع هذا فقد نجا معظمهم لأنه توفر لديهم مدخل حر ومخرج عبر البحر،ثم سار بعد هذا الى قلعة ابن الرب(تل الصافية) ومعه جميع جيشه،وطوقها من جميع الجهات،ثم أدرك بذكاء أنه لايمكنه الاستيلاء عليها،يضاف الى هذا،لقد وجد الداوية على استعداد لمواجهة كل خطر،ذلك أنهم كانوا قد أمدوا المعسكر بالميرة وبجميع المعدات التي يحتاجها الرجال الشجعان،وبالوقت نفسه صد الداوية بشجاعة عصابات المسلمين من عكا،بقتل بعضهم وأسر آخرين،وطلب المعظم عيسى المساعدات من المسلمين،حتى اذا جاءوا من الشرق يمكنهم حصار عكا، وهذا أمر لم يكن يمكن انجازه بسبب الخلافات المستمرة بين أمراء تلك البلاد أنفسهم، وهذه الخلافات كانت مفيدة جداً للصليبيين،وهي خلافات بذل الخليفة—وهو باباهم—جهده لإنهائها.

الفصل الثاني والأربعون

في سنة ١٢٢٠ للتجسيد في العالم،قام أمير دمشق بتدمير صافيتا،(٨٧) وكانت صافيتا هذه أقوى الحصون التي يمتلكها الداوية،وكان صلاح الدين مدمر الصليبيين الأول قد أوصلها أثناء حصاره لها الى حالة من

الضعف بحيث أن المدافعين هلكوا من الجوع،وقد حصلوا على أذن مقدم جيش الداوية بالقيام بتسليمها الى هذا الطاغية،وأي صوت وأي لسان يمكنه أن يكرر لنا منافع مخلصنا المتراكمة من أجلنا؟ وهي منافع صادرة عنه هو الذي امتلك الجودة والرحمة الطبيعية،وكذلك الاستمرار في مساعدة الكنيسة،فقد اقتنع بأن ينظر بعين لطيفة نحو معسكر المؤمنين،بسبب حلاوة تقواهم وإيمانهم، فالتضرع يلطفه،والدموع تجبره، وكيف يمكن ليد كاتب أو لسان متكلم أن يكون كافياً بالنسبة له،لأن مدحه هو شعور مستقر في القلب تماماً،ومع ذلك هو لايكفي؟ وعلى كل حال إنه لأمر ممتع أن نجمع،وأن نعجب بالمعجزات التي صنعت في وقت قصير من قبل الذي نزل من أبي الضياء،وكان بنو اسرائيل قريبين،يتجولون مع تابوت الرب وهم يضربون بالأبواق ويصرخون،وفي اليوم السابع تهاوت أسوار أريحا، وهكذا كان بامكان شعب الرب أن يمتلك مدخلاً حراً،لكننا نمنا أمام دمياط واستولى علينا الجبن والاهمال،وجلسنا بلا حراك وتراخينا وأسلمنا أنفسنا للكسل،ومع ذلك سقطت أسوار القدس،وأسوار جبل الطور،وصافيتا والتحصينات الأخرى المضادة،والقائمة بطريقة معادية،يضاف الى هذا أن الرب في عليين،أعطانا دمياط،ضد ارادة بعض المسيحيين المزيفين، والى هذا أضاف من مخزن كرمه حصن تنيس الذي لايرام، مع موارد مؤنه الموجودة في البلاد المعادية ، فهو الذي أنزل المن من السماء على المؤمنين به في الصحراء، ولهذا واضح للجميع،من خلال برهان المعجزة أن هذا الحج المقدس قد حظي برضا الرب وقبوله،وليصب بالخجل والخزي الذين تسلموا جوائز الملك الأعظم من كنيسته،وقاموا بالقتال بلا مبالاة،أو تراجعوا قبل الوقت المحدد،فأفسدوا حجهم،فهم سوف يقدمون حساباً الى القاضي الذي لايمكن أن يغش أو يرتشي،وعلى الكسالى القيام والنهوض،وأعني هنا الذين لم ينفذوا تعهداتهم بعد،لأنه«شرك للانسان أن يلغو قائلاً مقدس وبعد النذر يسأل» (الأمثال:٢٠/ ٢٥)فما هو

التسويغ الذي سوف يقدمه يوم الحساب والويل هذا للذي سرق جهد الآخرين وعملهم،وقتل النفوس التي أعطاها دعاة الحق الحياة،والذي اهتم بشرهه،وانتزع شارة الصليب من على أكتاف التعساء،الذين جعلهم يحنثون بعهودهم؟ وعليهم أن يعودوا الى الحكمة هؤلاء الذين اتهموا بهذه الجريمة،وأدينت ضمائرهم،لأنهم ادعوا زيفاً أسباباً للفقر والعجز،فقد خدعوا دين الذين امتحنوا،فقط لأن حكم الرب يكون تبعاً للصدق،لكن الذين التهموا المساعدات التي جمعت من أجل عون الأرض المقدسة،سوف يهلكون وسيكون نصيبهم مع حنانيا وسفيرا(أعمال الرسل:٥/ ٩)لأنهم أخفوا ذنوبهم بالكذب أمام روح القدس، ولسوف يكونون أيضاً مع يهوذا،أعظم اللصوص شراً،وهو الخائن للرب، وسيعاقبون في جهنم،لأنهم مع خيانتهم للمسيحية،احتفظوا لأنفسهم بأعطيات الرجال المقاتلين،وأعطوا نفوسهم لأشياء زائلة، وجعلهم الجشع يسرقون،ناسين أمنا القدس،الممددة على الأرض،وكلها رغبة بأن تنهض من أسرها بيد المصريين العائدين الآن،كوني مطمئنة« يامدينة الرب» لأن أمما سوف تأتي إليك من أماكن نائية،وهي تحمل الأعطيات،ولسوف تعبد هذه الأمم الرب فيك،وسوف يلعنون الذي يزدريك،وسوف يدينون الذين دنسوك،فالمباركون سوف يبنوك حتى تبتهجي،وأنت لسوف تبتهجي،بأولادك،ومبارك كل الذين يحبوك،ولسوف يبتهجون بسلامك.

الفصل الثالث والأربعون

وحدث أثناء تبدل السنة عندما ينطلق الملك بالعادة الى الحرب،أن جون ملك القدس غادر معسكر المؤمنين(٨٨)،واخترع الكثير من الأسباب ليسوغ عمله،ووعد بعودة سريعة،لكنه كان ناسياً للماضي،وقد تحول نحو المستقبل،وعندما فتح المولى يده وملأ ميناء دمياط بوفرة من

القمح،والخمرة،والزيت،وعندما أضيف لنا أعداد كبيرة من مجموعات الحجاج والخيول،ولم يعد هناك أرضية لتقديم الأعذار من أجل الانطلاق نحو العمل الذي بدأ هكذا بسرور ، ووصل في العبور السادس رئيس أساقفة ميلان(٨٩)وكريت،وأساقفة فينزا(٩٠)Faenza ورغيو(٩١)،ورسل من عند الملك فردريك،يحملون رسائل عليها أختام ذهبية،وهي تعلن عن وصوله،وحضر هناك أسقف بريسشيا(٩٢)Brescia ،وجيش كبير جداً من ايطاليا،ورأى النائب البابوي أنه بفضل امتيازات النعمة العظيمة والوفرة الربانية بات كل شيء كافياً للقيام بإجراءات المناقشات حسب المتطلبات،وأصيب بالحزن والاسف لأن الوقت كان يمر بدون فائدة،وأن فرصة عظيمة جداً قد ضاعت وبناء عليه،استدعى القادة الى الاجتماع، وكان هو أول المتحدثين،ومن بعده رئيس أساقفة ميلان،وكذلك مثله الأساقفة الآخرون،فلقد بذلوا جميعاً غاية الجهد للحث على القيام بزحف ضد السلطان الذي أقام معسكره على النيل، على مسافة يوم واحد من دمياط،لكن الفرسان تحدثوا ضد هذا التحريض،وجاء ذلك بعدما عقدوا اجتماعاً للمناقشة والبحث،وادعوا أن السبب الأول بالنسبة إليهم هو أن ملك القدس كان بعيداً بناء على اختياره الشخصي،وأنه لايوجد أمير آخر،الناس من مختلف الأمم على استعداد لطاعته في أن يقود شعب الرب،ولهذا اتفقوا على عدم التحرك،الأمر الذي سبب مضاعفة الشرور في المعسكر.

الفصل الرابع والأربعون

جاء في شهر تموز الكونت ماثيو أوف أبوليا(٩٣)،مع ثمانية غلايين،عاد اثنان منهم الى القرصان، وقد تم الاستيلاء عليهما لأنهما كانا يهددان المسيحيين أثناء السفر في البحر.

الفصل الخامس والأربعون

على التهورالبشري والاندفاع الطائش أن يخجل،لأنه يعتمد على قواه الخاصة أو على قوى الآخرين،ومن الواضح أنه غالباً ما كان مخزياً،ولقد ظهر هذا في قضية الكونت المتقدم الذكر،فلقد أعلن تقرير متقدم عن وصوله،وذلك بوساطة أخبار متواترة،وبما أن المناقشات كانت ستسير فقط من خلاله أعيق تقدمها بوساطة ظروف دعت الى التأخير،لكن ذكريات مثل هذا الأمل العظيم تلاشت بقوة صدمة،ولم يكن مرد المسألة الى الكونت أن الأمل لم يتحقق ويصل الى النتائج المرجوة،لأن ارادته—حسبما شهد النائب البابوي—كانت عالية،والتجهيزات التي جلبها والتي أضافها فيما بعد ظهرت أنها رائعة بالنسبة للجميع وكاملة وفقاً للمعرفة العسكرية،يضاف الى هذا أنه أقام إقامة نافعة في الجيش وموائمة لوضع جنود المسيح ،وكان بعدما وصل الى دمياط عمل النائب البابوي مشاورات وتقصى ليعرف أي الأمم كانت وقتذاك في المعسكر تمتلك الحماسة الأعظم،كما وتشاور مع الكونت ماثيو نفسه، الذي بدا بالنسبة له أن الزحف ضد ملك القاهرة هو الأكثر فائدة،ثم دعا بعد ذلك أمراء الحشد وقادته،وخاطبهم بشكل علني وحث الناس الكسالى على النهوض الى العمل والاقلاع عن التراخي والإهمال.

لكن القادة،وخاصة الفرنسيين منهم تحدثوا ضد تحريضه الشريف،وتمكنوا من التأثير على الايرل أوف آرندلArundel وأقنعوه للقيام بإعاقة اقتراح النائب البابوي وكان هذا الإيرل قائداً بين الانكليز ومن أعظم النبلاء مكانة بين الألمان،وكان من بين الأسباب التي تمسكوا بها غياب الملك جون،وغالباً ما احتجوا بذلك،فهو قد تصرف بشكل مضاد للاتفاقية التي أبرمت في عكا،عندما كان الحجاج على وشك الابحار الى مصر،فقد تعهد وقتها أنه لن يتخلى عنهم ويهجرهم مادام

حياً وحراً، وخلافاً لهذا الاتفاق المهيب والمؤكد عاد الى عكا،ولم يحضر للمشاركة في أعمال الصليبيين،بل حضّر نفسه وقام بالسفر الى أرمينيا(٩٥)،وقدقيل بأنه قصد تولي حكم تلك المنطقة،لكن أماله تبددت،ولم يستقبل من قبل بارونات أرمينيا، وحدث في الوقت نفسه أن توفيت الملكة،مع الابن الصغير للملك،كما أن روبين أمير أنطاكية،أراد أيضاً الحصول على هذه المملكة،لكن الجاثليق،وكان زعيم تلك الأمة،قام بكل قوة بحصاره في مدينة طرسوس،ثم أخذه أسيراً،وتوفي هناك،وآثر الجاثليق الآن الابنة الصغرى للملك ليون(٩٧)،التي كان أبوها قبل موته قد جعل أمراء المملكة يقسمون على الولاء لها،ثم مات بعد ذلك بوقت قصير.

الفصل السادس والأربعون

وبعدماقام النائب البابوي بعدة أعمال حث وتحريض عامة،حزن كثيراً لرؤيته جيشاً كبيرا بهذا العدد مقيم ولايريد التقدم،بل يريد العودة في عملية العبور المقبلة،وقام أخيراً بضرب مثل بعمله حيث شرع يحث الناس على الالتحاق بحاشيته وأمر بخيمته فنصبت في مكان منبسط،ومع ذلك فإن معارضة القادة هي التي سادت الى درجة أن بعض الغاليين والألمان،من المرتزقة الذين قبلوا المال منه،قاموا باعاقة خطته بالتقدم،وقد تم جرمان بعضاً منهم، وكان من المقررحرمان آخرين فيما بعدلكن هؤلاء انزعجوا واضطربوا وأرغموا على إعادة المال الذي قبضوه وقبلوه وفقاً لتوزيع الوقت،وقام الجنود الايطاليون بأمل كاذب بخداع الحماسة الدينية لدى النائب البابوي، وذلك بعدما وعدوا بتقديم العون للزحف،لكنهم كانوا مثل بني « أفرايم النازعون في القوس الرامون انقلبوا في يوم الحرب » (مزامير: ٧٨ / ٩) ، لأنهم بينما كانوا يقدرون بوضوح اصرار النائب البابوي، والجرأة الكامنة في الزحف ضد

السلطان،قاموا بالموافقة والاتفاق مع المنشقين المتقدم ذكرهم أعلاه،وعارضوا الزحف،مع أن الصليبيين لم يكونوا يعانون من نقص بوفرة الجند والأتباع،وكانت الغلايين كثيرة جداً،وجرى إعداد البراكيس، وكان هناك حشد هائل من الرماة،كما توفرت كميات كبيرة من المؤن،وكانت موضوعة هناك في مكان مناسب بين النهر من جهة اليمين والبحيرة من جهة اليسار، وكأنما الرب كان يقول لنا:« ماذا يُصنع أيضاً لكرمي وأنا لم أصنعه له؟ لماذا إ ذ انتظرت أن يصنع عنباً صنع عنباً رديئاً؟» ،ذلك أنه بالاضافة الى الأشياء الأخرى التي أمدنا بها الرب للقيام بالحملة،سمعنا من كشافتنا،أنه كان لدى ملك مصر القليل من العون،وأن حشداً كبيراً من البداة قد التحقوا بنا،وهم على استعداد لتقديم زوجاتهم وأولادهم بمثابة رهائن،اذا ماعلموا بأن الصليبيين قد قرروا القيام بالحملة برجولة،فهذا ماعلمناه من رسائلهم ومن خلال رسلهم،ويبدو أن هذا كان ممكنا لأنهم كانوا خاضعين لدفع الجزية للسلطان،وفي الحقيقة كانوا هم من قبل قد تولوا حكم ديار مصر،حتى أخضعوا بالقوة من قبل صلاح الدين،وجرى تفريقهم في خلال قفار الصحراء.

الفصل السابع والأربعون

وانسحب النائب البابوي الى المعسكر السالف،وذلك بعد كثير من المتاعب، ولأنه واجه أتباعاً غير راضين وموافقين،ثم بشكل خاص بسبب فيضان النهر،وقام بقوة بحثّ صانعي التأخير،وفعل ذلك من خلال قداس عام،وأعلن أن عمل الرب طالما بدأ بداية سارة ينبغي ألا ينتهي،وأن عليهم الحكم على أنفسهم خشية أن يدانوا بقسوة من قبل قاضي الأشياء السرية.

الفصل الثامن والأربعون

مامن أحد يمكنه أن يصف فساد جيشنا،بعدما أعطانا الرب دمياط،وأضيف إليها حصن تنيس،فقد بات الناس كسالى،مخنثين،تدنسوا بأعمال المهاجع والسكر والفسق والزنا والسرقة،والربح الشرير،وبعد(٩٨)هذا قام بعض رجالنا بزحف يوم واحد داخل الأراضي العدوة،وعادوا ومعهم أسرى،وجواميس، وخيول ، ثم قام الداوية مع أتباعهم خاصة بزحف سريع نحو بلده قائمة على شاطىء البحر(الى الغرب من دمياط) واسمها البرلس،وجلبوا معهم بعض الأسلاب فيها جوالي المائة جمل،وعدد مع الأسرى،وخيول،وبغال،وجواميس،وحمير، وماعز وملابس،مع كثير من الاثاث المنزلي،وعادوا دون التعرض الى الاذى، بعد غياب دام يومين،وعلى كل حال،مات على الطريق بسبب نقص الماء كثير من الخيول والبغال مع أن الرجال عادوا سالمين،واستقبلهم فرسان التيوتون مع آخرين بكل سرور، لكن عندما تخلفوا وراء الداوية(لسبب غير معروف تماماً)،قام الفرسان الأتراك السريعين بهجوم عليهم عند البحر،وهرب الناس من الأمم مرعوبين من حولهم،لكن الانكليز والفلمنكيون و التيوتون،وروبرت أوف بلمونت(٩٩)Belmont أخذوا بالصمود بوجه الهجوم عندما وصل المهاجمون إليهم،وتمّ أسر معلم بيت الفرسان أنفسهم ومقدمهم مع عدد كبير من الفرسان ،وحوالي العشرين من الفرسان غير الرهبان،وقتل عدد كبير من خيول الذين هربوا للدفاع عن أنفسهم، لأن رجالنا كانوا قد خرجوا ليس من أجل القتال بل لاستقبال الداوية،ولهذا كانوا بدون رجال القسي العقارة والرماة الآخرين.

الفصل التاسع والأربعون

وصل في شهر آب الى دمياط أربعة عشر غليوناً مجهزة،وكانت مرسلة من قبل دوج البندقية(١٠٠)،الذي جلب بعض المساعدة الى الصليبيين،وسلح بالوقت نفسه ملك مصر ثلاثة وثلاثين غليوناً،سببت لنا خسائر لاتقدر،لأن رجالها استولوا على سفن التجار،مع الرجال أنفسهم،الذين كانوا جالبين ميرة الى دمياط،لابل إنهم أخذوا الحجاج أسرى،ونهبوا السفن وأحرقوها،بالاضافة الى ذلك هاجموا سفينة كبيرة كانت جالبة الكونت هنري أوف سكورنSchwerin مع نبلاء تيوتون آخرين كانوا قادمين إلينا،وعلى كل حال،لقد دافعوا عن أنفسهم برجولة، وبعدما قتلوا وجرحوا عدداً كبيراً من القراصنة،لحسن الحظ نجوا،مع أنهم خسروا مركباً واحداً عائد بملكيته الى بيت التيوتون،وكان هذا المركب محملاً بالشعير،وقد أتلفت النار الإغريقية هذا الشغير.

الفصل الخمسون

نحن مرغمون هنا على اقحام رواية حول مصيبة،فقد كان الكونت ديثر أوف كاتزنلنبوغن(١٠٢)Diether of katzenellenbogen، قد تركنا قبل حلول وقت العبور مع حشد كبير من الحجاج،مع أنه حُرض بشدة،وتم حثه من قبل السيد نائب البابا حتى لايقوم بركوب تلك السفينة إذا ما رغب بالذهاب الى سالونيك،بل أن يذهب في مركب أصغر مع عدد قليل من الرجال دون أن يضعف الجيش،لكنه مع قبطان السفينة وعدد كبير من الحجاج ركبوا رؤوسهم،وقاموا بالرحلة،ولهذا قام نائب الكرسي الرسولي بإنزال عقوبة الحرمان بتلك السفينة الملعونة مع جميع المبحرين عليها،وقد وقعت السفينة بين القرصان قرب